رحلة الهدم والبناء.. وإبراهيم عليه السلام بالتدبر... والتفكُّر

«١»

في أعقاب ما أوجزنا عن هداية المعلم القرآني في قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه، أجدني مسوقاً لأن ألقي عصا التسيار عند التذكير بأن مرحلة الصراع المريرة المنوَّعة التي قطعها إبراهيم بين التوحيد والوثنية وانتهت بإلقائه في النار التي جعلها الله برداً وسلاماً عليه، إكراماً منه سبحانه لخليله والتي اتسمت بمحاولة صادقة صامدة منه عليه السلام: تهدف إلى تحويل أبيه وقومه إلى الصراط السوي، حين قدم كل ما يستطيع على صعيد الفكر والحوار والصبر على الأذى نتيجة تحطيمه الأصنام..

أقول: إن هذه المرحلة سبقتها مرحلة شامخة من التدبر والتفكر في آيات الله في الآفاق، وكان هو مستهدفاً من قومه كيما يردوه ـ على زعمهم ـ إلى الصراط السوي.

نقرأ في ذلك قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾[الأنعام: ٧٤] فلقد كان هذا إعلاناً عن استنكار مبكِّر عند إبراهيم لما عليه أبوه وقومه من العكوف على عبادة الأصنام، وأنه ليس على قناعة بما يفعلون، بل يراه من الضلال المبين.

ويكرمه الله بتدرج صاعد على سلَّم اليقين من طريق ما يريه من ملكوت السماوات والأرض﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾[الأنعام: ٧٥-٧٦].

أجل إنه يجب أن لا يتخذ ما يتغير ويتبدل رباً من دون اللَّه عز وجل؛ لأن ما يخضع للتغيير والتبديل لا يصلح لهذه الربوبية، إذ إن ذلك عنوان سلطان لقوة أخرى عليه.

ثم قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ ﴾[الأنعام: ٧٧].

إنه يعمل عقله، ينظر فيما خلق اللَّه نظرة التفكر الواعي والتدبر العميق، أما الآخرون: فقد منحوا عقولهم إذناً بالتعطل عن العمل، وظلوا هم مقيمين مقعدين على اتخاذ الأصنام آلهة من دون اللَّه، ولم يرفعوا رؤوسهم مرة إلى الأعلى، ويا خيبة من لا يتفكرون ولا يتدبرون.

وفي نقلة أخرى: ينظر إبراهيم إلى الشمس نظرة زادته يقيناً بأنها على كبرها ليس أمرها بيدها بل هي خاضعة أيضاً للتغيُّر والتبدل ويعلن براءته مما يشرك قومه ذلكم قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾[الأنعام: ٧٨]. ولقد يكون ما صدر عن إبراهيم عليه السلام ـ كما يرى بعض المفسرين ـ أسلوباً من أساليب الحوار في إقناع أبيه وقومه بشكل غير مباشر؛ وعلى أية حال جاء بعد ذلك الموقف الذي أثمره النظر: ما يعني تجاوز البصر إلى البصيرة، والتفكر فيما أعطى هذا النظر المتدبر الواعي، الذي يستجيب للفطرة، ويتيح للعقل أن يعمل عمله دون تأثر بسلطان الهوى أو التفكير الأعمى.. الأمر الذي قاد إبراهيم إلى الخالق من خلال آياته في خلقه، ذلكم قوله عليه السلام فيما حكى عنه الكتاب العزيز:﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾[الأنعام: ٧٩].

وكما أشرت من قبل؛ كان إبراهيم هو المستهدف في هذه المرحلة، حيث كان قومه يطمعون ـ ويا للغباوة ـ في أن يشاركهم ما هم متسربلون به من الغفلة والضلال. ويسكت عما هم غارقون فيه من تعطيل عمل العقل وأهلية الإنسان.

وكان منهم الحجاج المتهالك الذي لا تقوم له حجة ولا ينهض به دليل.

وأين هذا مما كان عليه إبراهيم المتدبر لآيات اللَّه في الكون وفي نفسه: من وضوح الرؤية واليقين الذي لا يتزعزع؛ بل أين الحطام العفن: من تلك البنية الفكرية التي نبعت من الفطرة ورافقها عمل عقلي مستنير، واستخدامٌ واعٍ لما أعطى اللَّه العبد من وسائل المعرفة والقدرة على النظر في ملكوت السماوات والأرض؟!

وهاكم الآيات التي حملت هذه النتيجة: **﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١)﴾**[الأنعام: ٨٠-٨١].

وهكذا كانت لإبراهيم الحجة ـ بعون اللَّه ـ على قومه، وكان ذلك مؤشراً على طريق الإنسانية الطويل**﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣)﴾**[الأنعام: ٨٣] وتخطى إبراهيم هذه المرحلة حيث كان هو المستهدف، ليبدأ برحلة الصراع التي أوجزت القول فيها من قبل.

ولقد يكون من الخير أن ننظر إلى أي حد كان تأثير البناء في ماهية معركة الصراع بين الحق والباطل، وإلى أي حدٍ تنامى عند إبراهيم الاعتزاز بما هو عليه من الحق، والإرادة الحازمة في الثبات عليه. يتضح ذلك بصورة أدق وأعمق إذا وضعنا كل الظروف المحيطة نُصبَ أعيننا؛ فهذا الرسول الكريم لم يقطع رحلته على أرض هينة لينة آمنة، ولكن كانت أرضاً شائكة أوصلته ـ بضلال أهل الضلالة واستغلال سدنتها المنتفعين ـ إلى الإلقاء في النار.

واليوم: يبدو أبسط وجوه المسؤولية عن الانتفاع بصنيع إبراهيم وأمثاله في تاريخ الفكر الإنساني، أن يُحْسَنَ البناء المتكامل للإنسان وتنمية الاعتزاز بالحق، وأن تُسقى إرادة العمل والتغيير المطلوب باليقين، فإبراهيم لم ينتقل من المرحلة التي كان فيها مستهدفاً، إلى مرحلة الفاعلية ـ والتأثير بل لمواجهة الباطل والتحدي ـ أقول: إن إبراهيم لم ينتقل هذه النقلة، إلا وقد استكمل شرائط البناء، ونمت في نفسه كل المشاعر التي تقود إلى التفاني في هدم الباطل الذي هو ركام يعوق مسيرة الإنسان.

ولقد كنت حريصاً على تأخير الحديث عن هذه المرحلة لعل ذلك يكون أبلغ في النفس، وأدعى للإفادة من العبرة، خصوصاً والحرب مع اليهودية والصليبية اليهودية والوثنية وما هو في حكمها: دائرة، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

من شذرات الضياء.. على طريق البناء
سلامة المنطلقات.. في فقه إبراهيم
«٢»

ماذا عليّ بعد تلك الرحلة القصيرة مع بعض الوقائع في قصة إبراهيم عليه السلام المتدبر المتفكِّر، تلك التي أشرقت بها زمرة من آي الكتاب الكريم، والتي خطت لنا واحداً من المعالم القرآنية الهادية في حياة الرسل عليهم الصلاة والسلام الذين اصطفاهم اللّه لحمل رسالة الهدى والخير.. أن أشير إلى واحدة من شذرات الضياء التي كانت من عطاء ذلك المعلم، تبدو نقطة الارتكاز في منهج أولئك الرسل عليهم السلام وإبراهيم صلى اللّه وبارك عليه وعلى آله واحد من أولي العزم فيهم.

تلكم هي: سلامة المنطلقات الأولى للحركة والبناء، والحرص كل الحرص على أن يكون ذلك منذ البداية.

ذلك بأنه إذا سلمت تلك المنطلقات منذ الخطوة الأولى في انتسابها إلى الحقيقة، وصلتِها بأرومة الخير على طريق التنمية والبناء والحركة: أمكن لنا أن نضمن مقدمات نيِّرة صحيحة تؤدي إلى نتائج نيرة صحيحة..

ولكن إذا ساءت المنطلقات: كان معنى ذلك بناء النتائج على السيئ من المقدمات؛ وطبائع الأشياء تقتضي أن تكون ثمرات المقدمات على غرارها حسناً أو سوءاً، فثمرات المقدمات السيئة الملتوية: هي نتائج على غرارها ومن فصيلتها، والعكس صحيح.

فإبراهيم عليه السلام ـ وهو ينشد الخير، ويعمل على أن يرفع له قواعده، وينمي وجوده الذاتي ـ أعرض عما كان عليه قومه منكراً له ودعا ـ في بيئته الجاهلية التي ترفع راية الوثنية المضللة ـ بدعوة الإنقاذ من الهلكة حين نادى بعقيدة التوحيد

المباركة.. العقيدة التي تتواءم مع الفطرة، وتفسح للعقل والقلب، بل لكل واحد من مصادر المعرفة أن يعمل عمله، فيكون التدبر، ويكون الفكر المنهجي، وتخرج الإنسان من ظلمات الجهل والكفر إلى نور الإيمان والمعرفة والتحويل إلى ما هو الأفضل والأقوم في حياة الفرد والمجتمع.

وهكذا تميَّز عمل إبراهيم ـ أول ما تميَّز ـ بسلامة المنطلق والباعث؛ فكانت البداية بداية مشرقة قائمة على وضوح الرؤية، والاتساق مع الفطرة، وسنن اللّه وما يقضي به العقل السليم، ثم على اقتران القضية المطروحة بالدليل.

وكان من وراء ذلك: نظرات لا يحدُّها مطمع شخصي، أو غرض هابط من الأغراض التي يلهث وراءها أصحاب الدعوات الفارغة، التي هي على النقيض من الفطرة، وإنسانية الإنسان.

ولذلك استطاع أن يخوض معركة الهدم والبناء ـ كما رآها من خلال عقيدته ـ بثبات وطمأنينة، وكنت ترى كل يوم نماءً في عزيمته وقدرةً على تحدي الباطل وأهله.

وكم كان في ذلك من العطاء على طريق أولئك الذين ينشدون لأمتهم إحكام البناء على كل صعيد!

لقد كانت نقطة البدء: أن رمى ببصره في آفاق النفس الإنسانية وفي أرجاء هذا الكون العريض، ونظر إلى ذلك كله نظرةً واعيةً متدبرة، وخرج من ذلك باليقين بوجود اللّه تعالى ووحدانيته، ووجوب التبرؤ مما يعبد أبوه وقومه من تماثيل هم لها عاكفون. قال تعالى في سورة الزخرف: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧)**﴾[الزخرف: ٢٦-٢٧] .

وطبيعة النظرة البعيدة في البناء المرتبط بكلمة التوحيد: أملت عليه رجاءه أن يكون ذلك في عَقِبه من بعده ذلكم قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨)**﴾[الزخرف: ٢٨] وفي سورة الأنعام: ﴿**إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)**﴾[الأنعام: ٧٩] وكل أولئك يؤكد عظمة البداية، وسلامة ارتباطها بالغاية.

لقد كانت بداية إبراهيم بداية أنعم بها من بداية، سلمت من بعدها خطواته المتتابعة طوال عمره المديد على ساحة البناء، وتنمية مشاعر الخير عند الولد والذرية ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، والتمكين لعقيدة الفطرة والفسح لآثارها في النفوس والقلوب.

وكل ثمرة من الثمرات التي جناها إبراهيم على صعيد إنقاذ الإنسان من وهدة الوثنية والضياع تذكّر بسلامة المنطلق وإشراق البداية. وإنه لمعلم عظيم أن نحسن البدء على صعيدي الفرد والجماعة؛ كي نضمن سلامة النتائج والثمرات!

من شذرات الضياء.. على طريق التنمية والبناء
إبراهيم وقومه
«٣»

كان مما أشرت إليه في سالف من القول: إلى أن بداية إبراهيم عليه السلام كانت نعم البداية التي خلّفت آثارها في كل الخطوات التي تلتها، بل وفي النتائج التي أثمرتها دعوته على صعيد البناء، حيث دعا بدعوة الفطرة، والاستخدام الأمين الواعي لما أعطى اللّه الإنسان من وسائل المعرفة والتفكر والتدبر.

وتأتي مرحلة المواجهة الجادّة بينه وبين أبيه وقومه، ويتبدى الاتساق بينها وبين تلك البداية المشرقة التي كانت عنواناً أمثل لنقاء القلب وسلامة الفكر التي عبرت عن سلامة المنطلق على طريق صاعدة محفوفة بالمخاطر تبدت في هذه المرحلة وما وليها.

لقد كانت هذه المرحلة ـ مع الذي فاضت به من العطاء ـ امتداداً طبيعياً لنقطة البدء؛ فبعد أن يئس من استجابة قومه لدعوته، لجأ إلى المعاناة العملية في إزالته الأذى وإزاحة الركام، فانهال على الأصنام ضرباً باليمين حتى قطع أوصالها وجعلها جذاذاً، وكان ذلك صورة تعلن للملأ أن الوثن وعابد الوثن من الباطل المزري وإليه.

وهكذا لم يَحِدْ إبراهيم عن الذي أشرقت به البداية، فصارت الحوادث على صعيد البناء: تحمل كل سمات المواءمة معها على صعيدي التصور والتطبيق؛ فلا الرغَبُ ولا الرهَبُ بمحوّل إبراهيم عن مساره الأصلي، والمحورِ الذي تحرك عليه بدءاً من الخطوة الأولى.

وهكذا كانت سلامة المنطلق: ضمانة لامتداد البناء سليماً معافىً من عوادي الخوف، أو الاستخذاء أمام ما يفرض الواجب. ذلكم قوله تعالى:﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات:٩١-٩٦].

ويزداد الأمر وضوحاً، فيبرز تلاقي النتائج مع المقدمات، حين يظل إبراهيم ثابتاً كالطود لا يتزعزع؛ فما دام على الحق الصراح فيما صنع، فلا عليه أن تزهق روحه ثمناً لما أقدم عليه من هدم الأوثان وحراسة العقيدة التي تنادي بعبادة اللّه وحده لا شريك له، وإسلام الوجه له في كل حال. وكان اللّه معه بالعناية والتأييد ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾[الصافات:٩٧] .

ويهبه اللّه إسماعيل وإسحاق على الكبر، وتأخذه نواصي الأقدار بإرادة اللّه تعالى إلى أن يسكن وذريته ـ على ضعفها وحاجتها للمعيل ـ بالحجاز بواد غير ذي زرع عند بيت اللّه الحرام.

ويستعلن ضياء طريقه توحيداً خالصاً، وتوجهاً بالقلب والعقل والنفس إلى اللّه، في حسن توكل عليه، واعتماد على عطائه، ورضى نفس مطمئنة بقضائه ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾[إبراهيم: ٣٧] .

وما أحسبني بحاجة إلى الكشف عن صادق النسب بين هذا الموقف وبين ما سبقه، حتى نصل إلى تلك البداية التي كانت منطلق الحديث: دائماً مرحلة تسلم إلى مرحلة، وكل واحدة تشهد بخصائصها ومقوماتها وما حملت من وقائع في ذات إبراهيم الأوَّاه المنيب وعلاقته المكينة بربه الناصحة في علاقته بالآخرين؛ إنها صادقة النسب إلى نقطة البدء وثيقة الصلة بها.

وهكذا فليفعل الرواد المؤتمنون على التطوير إلى ما هو الأفضل على ساحة البناء والتنمية، والإفادة الموضوعية من كل المواهب البشرية والطاقات المادية.

هكذا فليفعلوا! تحريراً لنقطة البدء المتَصوَّرة، والحرص على سلامتها قصداً وعملاً وتطبيقاً.

وكم جنت أمتنا من مصاعب ولاقت من متاعب نتيجة الخلخلة في البداية، وعدم التحري لسلامة المنطلق، فترى الأحكام تتلون بلون المنطلق، والنتائج تنحرف تبعاً لانحراف المقدمات.

فعلى صعيد الفكر وعلى صعيد العمل والتنفيذ: تبدو ملحةً ضرورة الحيطة في المنطلق، وأن تكون البداية سليمة مشرقة، لما لذلك من انعكاس على مسيرة الأمة فيما تهدف إليه من بناء وما تقصد إليه من تنمية تسهم في الوصول إلى الغاية المرتجاة. وطريق الأنبياء عليهم السلام نعمت الطريق. وصلى الله وسلم وبارك على إمامهم سيد العالمين وعلى آله وصحابته أجمعين.

ترابط المراحل.. والبناء في حياة إبراهيم

«٤»

تطلعات المجتمعات في الأمة الإسلامية اليوم من خلال واقع له صوره ومميزاته هنا وهناك، تبدو وهي أقوى في الدعوة لأن تتابع الرحلة مع الانسجام الواضح بين البداية والنهاية وما كان بينهما من التواصل عند إبراهيم عليه السلام، فلكم توفّر الدقة في البداية والوعي لآثارها فيما بعد، من جهد، وكم تحفظ من فُرص، سواء أكان ذلك على صعيد بناء الإنسان تعليماً وتربية وإعلاماً، أم كان على صعيد التحرك مع الطاقات المادية والإفادة من العلم التقني لترشيد ما يتوافر من وسائل التنمية ووضع الكفاءة المناسبة في المكان المناسب.

أجل كم يوفر علينا ذلك من جهد ويحفظ من فرص وطاقات، وعلى العكس من ذلك حين يميل بالبداية الجهلُ أو الهوى، فيوضع الخط المعوج بدل الخط المستقيم، وتضطرب الزوايا، وتختلف المقاييس، وهنالك تجد على صعيد بناء الإنسان شباباً تنحرف نظراتهم مثلاً إلى مبادئ الإسلام وأخلاق الإسلام، نتيجة الجهل في إحكام المنطلق والانحراف في البداية.

وينعكس ذلك على السلوك والتصرف، وكل ذلك عائد على هؤلاء الشباب ـ الذين هم عُدّة المستقبل ـ بالخسران على أنفسهم وعلى الأمة.

ولو سلمت لهم تصوراتهم عن الإسلام من بدء الطريق، ووُضعوا في عقولهم وقلوبهم ومشاعرهم، على الساحة بعناية من أول الأمر، لكان من وراء ذلك الخير الكثير.

وقل مثل ذلك في الأمور الأخرى: عندما تهدر الطاقات المادية والعملية امتداداً للاستهانة وعدم المبالاة، أو الجهل عند البداية.

واليقظةُ لهذا الأمر أو ذاك واجب لا مندوحة عنه، حين نكون جادِّين مخلصين في كل الذي نصبو إليه من أن تعود هذه الأمة مسيرتها الأولى في علاقتها بالإسلام، وخصوصاً على صعيد الجيل الناشئ فتياناً وشباباً، وأن توظف طاقاتها الروحية والمادية عن طريق الخير والنماء بما يعود عليها وعلى الإنسانية بسعادة الدنيا والآخرة.

وفي عود على بدء: تمضي الأيام، ويبلغ إسماعيل مع أبيه السعي، في مرحلة الشباب، ويُطلّ على الأب الشيخ والولد الشاب، ومعهما الأم الرؤوم: الامتحان الصعب، والبلاء الذي كفاؤه ـ بعد عناية اللَّه ـ عزمات أهل الإيمان.

ويتضح التساوق ـ كما أشرنا من قبل ـ بين البداية التي خطها إبراهيم على أرض التاريخ في توحيد اللَّه والدعوة إلى ذلك وإخلاص الوجه لبارئ السماوات والأرض، الذي بيده العطاء والمنع، وإليه يرجع الأمر كله. وبين عزمه على ذبح ولده تنفيذاً لأمر اللَّه عندما رأى في المنام أنه يذبحه ـ ورؤيا الأنبياء حق ـ.

لقد نطق سلوك إبراهيم عليه السلام ـ فضلاً عن موقف إسماعيل ـ بأن الرضى بالقضاء، والصبر على الابتلاء: ثمرة طبيعية للإيمان الصادق باللَّه عز وجل، وكان ذلك ـ في الواقع ـ صورة عن سلامة البنية الفكرية والشعورية عند هذا الإنسان الذي لم يَحِدْ بواحد من تصرفاته عن المحور الممتد إلى هنا بدءاً من الكلمة الأولى «لا إله إلا اللَّه».

وعلى هذا المحور ـ وبعد عقود كريمة من عمر إبراهيم عليه السلام ـ يقف مع ولده الشاب إسماعيل ليرفعا قواعد البيت الحرام بيت اللَّه الذي جعله ربنا تبارك وتعالى مثابة للناس وأمناً: البيت الذي قال اللَّه بشأنه: ﴿ **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾** ﴾[آل عمران: ٩٦-٩٧] .

سبحان من له الخلق والأمر.. إن اليد التي سُعدَت بتحطيم الأصنام، وإن اليد التي حملت السكين وتلَّت إسماعيل للجبين إنفاذاً لأمر الله في ذبح إسماعيل قبل أن يجيئ الفداء، وإن اليد التي رفعت قواعد البيت مع يد إسماعيل هي هي يد إبراهيم، تهدم الأصنام وتبني الكعبة.

انظر إلى رفع البيت هنا، وإلى جذاذ الأصنام هناك، لتجد دلالة الارتباط بين النتائج والمقدمات، ودلالة تلك النتائج الباهرة على سلامة المقدمات، وكيف أن كل مرحلة من المراحل التي أملاها خليل الله عليه الصلاة والسلام على التاريخ: كانت وثيقة الصلة بأختها، تتحرك بمنهجية على غرارها، وفق منهج غاية في الدقة والعمق يشمل الجميع، وأن إبراهيم لو لم يكن موصول القلب بالله الذي بيده مقاليد السماوات والأرض وهو القوي العزيز، الأمر الذي جعله ـ بعون الله ـ أقوى من الصوارف والمعوقات ما كان من داخل النفس وما كان من خارجها.. لو لم يكن عليه السلام متبوئاً هذه المرتبة العظيمة، لما قدر على ما قدر عليه من تحلٍّ بالعزيمة على ذبح ولده وهو في غاية الرضا والطمأنينة بحكم الله وإنفاذ مراده، وهو ـ سبحانه ـ المستعان.

ولئن كانت الصلاة على الأنبياء دعاء بمزيد من رفعة أقدارهم ومكانتهم عند الله في منازل القرب: إن ذلك يشعر ببعض من حكمة الصلوات الإبراهيمية التي علمها رسول الله ﷺ الأمة من خلال توقيف أصحابه عليها ليعملوا بها، وكانت من شعائر الصلاة في شرعة الإسلام؛ حيث يؤديها المسلم في صلاته مستشعراً صدق الوجهة عند إبراهيم عليه الصلاة والسلام في استقامته على المنهج الأقوم منذ البداية وحتى فاضت روحه إلى بارئها.

ومستشعراً كذلك عظمة سيد الأنبياء والمرسلين بنبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام، عندما هدى الأمة إلى ذلك.

روى الإمام البخاري عن كعب بن عجرة رضي اللَّه عنه قال: قيل: يا رسول اللَّه، أما السلام عليك: فقد عرفناه، فكيف الصلاة؟ قال: «**قولوا اللَّهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللَّهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد**» .

فاللَّهم صَلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد .

إبراهيم.. وأصالة البناء في منهج الرسل عليهم السلام لا التجربة

ضرورة الحرص على سلامة الباعث المنطلق، ضماناً للبداية المشرقة على ساحة البناء وتجويد العمل لتحسن الثمرات والنتائج.. هذه الضرورة التي قدمها لنا واحد من معالم القرآن في منهج رسول من أولي العزم هو إبراهيم عليه السلام، ذات نسب موضوعي بنقطة أخرى لا تقل عنها أهمية في ميدان الفكر والتطبيق.

تلك هي أن منهج النبوة كما بدا لنا من الآيات التي حملت إلينا منهج أبي الأنبياء إبراهيم: لا يحمل عنصر التجربة التي تحتمل الخطأ والصواب، حيث تكون التجربة لأمر من الأمور، ثم يستبين عند التجربة خطأ ما حصل، فيتحتم التحول عنه إلى غيره مثلاً.

أجل ليس ما يصنعه الأنبياء في أمر الدعوة وبناء الفرد والمجتمع - على معطياتها - تجربة يمكن التحول عنها إلى غيرها؛ لما أن هؤلاء الرسل عليهم الصلاة والسلام على اتصال بالملأ الأعلى بلا ريب؛ فهم مؤيدون بالوحي من عند الحكيم الخبير، ولو حصلت هناة أو خطأ يسير في الاجتهاد: فإن الوحي يقومه ويعود الأمر إلى صراطه السوي.

إن إبراهيم عليه السلام لم يُقْدِمْ على شأن من شؤون الدعوة، في إعلان عقيدة التوحيد في الناس، ومقارعة الوثنية والأوثان، وتراجعَ عنه لما أنه تجربة وافقت أو خالفت، لا، بل رأينا سلامة المنطلق وإحكام الترابط بين المقدمات والنتائج، بدءاً من عصر فتوته على عتبة الشباب، وحتى لفّته الشيخوخة بجلالها ونضجها. بل بلغ من

وثوقه ويقينه بما يعتقده ويدعو إليه: أن كان من دعائه دعاءٌ يتجاوز عصره بأن تكون كلمة الإسلام هي الآمرة الناهية، وأن يبعث اللّه في أعقاب الأعقاب رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾[البقرة: ١٢٧-١٢٩] .

ولقد ردّنا القرآن بعد هذا إلى المحور الأول الذي انطلقت منه البداية العميقة العظيمة، البداية التي كان ما بعدها استمراراً لها دونما تجارب أو انتكاسات.

ذلكم قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾[البقرة: ١٣٠-١٣١] .

وهكذا كان الثبات وكانت الأصالة. ولست الآن بسبيل أن أوسع القول في تطبيق هذه القضية على دعوة رسولنا ﷺ وانتقاء التجربة التي تحتمل الخطأ والصواب، وإيضاح أن الثبات والأصالة هما الأصل، فذاك أمر واضح المعالم مثقل بالنصوص والوقائعِ التي تدل على ذلك أعظم دلالة.

والمتبصِّر في الوقائع والنصوص: يجد أن العتاب لرسول اللّه ﷺ أو له ولأصحابه، على بعض ما حدث خلال ثلاثة وعشرين عاماً ـ كما نرى في عدد من آيات الكتاب الكريم ـ كان دليلاً على صدق هذا الذي نقول، فرسول اللّه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، وإذا حصل أن وقع اليسير اليسير من المخالفة في الاجتهاد، يتنزل الوحي، فيصوِّب ما حصل، ويكون العدول إلى ما هو الصواب أو الأصوب من أمثلة ذلك: العتاب على أخذ الأسرى في بدر، العتاب على الإذن للمنافقين الراغبين في القعود عن الجهاد.. إلخ.

هذا: ولم يعد خافياً أن كل الاتجاهات والمذاهب التي قامت في هذا العصر بعيداً عن الإسلام ولها دول وجيوش تحميها كانت تتسم ـ وما تزال ـ بعنصر التجربة، والشعوب هي وسائل الإيضاح في هذه التجربة، وعلى حسابها تكون البعثرة والتقلبات.

وبعض الأفكار تحميها القوة والبطش والتجسّس، ولولا ذلك لما استمرت شهوراً ولا أياماً. وإذا كان الأمر كذلك، بهذا الوضوح على ساحة الواقع، فما أحرانا بأن نعمق أصالة الانتماء، ونزيد من تنمية الشعور بأنه لا طريق للأمة في استئناف بنائها الذاتي إلا طريق الإسلام من منابعه الصافية، دون أن يحجبنا عن ذلك ـ مهما كان الثمن ـ أوهام وتخرصات هي في حقيقتها من صنع أعداء اللّه وأعداء الإسلام، فضلاً عن أن يكون مرد بعضها نفثات مرضى القلوب من بني جلدتنا، أو جهالة فئات من المسلمين بحقيقة الإسلام. وبلاءُ أمتنا بأميَّة نفر من أبنائها حيال هذا الدين القويم ـ حتى من أهل التخصصات الأخرى، أو زاعمي الثقافة والتنوُّر ـ بلاء عظيم، ولَّد ـ ويولِّد ـ الكثير من الأحكام الجائرة على الدين الذي أكمله اللّه وأتم به النعمة ورضيه ـ بفضله ـ لهذه الأمة.

وقلة الحياء ـ على هذه الساحة ـ مهلكة أي مهلكة. وصدق رسول اللّه ﷺ إذ يقول كما جاء في الحديث الصحيح من رواية أبي مسعود الأنصاري البدري عقبة بن عمرو رضي اللّه عنه: «**إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستحْيِ فاصنع ما شئت**» رواه البخاري وغيره.

إن منهج إبراهيم عليه السلام ـ كما رأينا من خلال المعلم القرآني ـ يلتقي مع مناهج الرسل عليهم السلام، في سلامة الأساس والمنطلق، واستبعاد أن تكون شؤون الرسالة السماوية تجربة تخضع للخطأ والصواب لما أنها من لدن ربنا العليم الحكيم؛ وهو في الرسالة الخاتمة رسالة الإسلام أشد وضوحاً؛ لما اقتضته طبيعة كونها الرسالة الخاتمة، وأنها للناس جميعاً في كل زمان ومكان ﴿**قُلْ أَيُّ**

شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ [الأنعام: ١٩] وما أكرم وأعظم ما تجد من الذاتية والثبات في الأصول، وإمكان الاجتهاد في قضايا طارئة بناءً على تلك الأصول؛ ذلك بأن النصوص ـ كما يقول المحققون ـ تتناهى والوقائع لا تتناهى.

وبعيداً عن التعميم غير المحدود والتجريد؛ لا بد أن يتحوَّل يقيننا بسلامة المنهج الإسلامي إلى أن يكون أساساً لاستئناف مسيرتنا الحضارية ـ مهما تكاثفت ظلمات الصوارف ـ لإيماننا بالإسلام ولما نرى ونشهد من تجارب المذاهب الأخرى وانتكاساتها، وقلق الإنسان، بل ضياعه في ظلها..

أجل: لا بد أن يتحول ذلك اليقين إلى تنهيج موضوعي دقيق، ينعكس على بناء الإنسان المؤهَّل لاستئناف المسيرة، كما ينعكس على بناء المجتمع ضمن الظروف والمعطيات، وعلى كل ما ينمي حوافز العمل في ميادين التربية والتعليم والإعلام والتقنية وغيرها، على نور من هدى الله فيما أنزل من كتابه وائتمن رسوله ﷺ على تبليغه وبيانه. ولا تسل عن جهود أئمة الهدى جزاهم الله خيراً في هذا السبيل.

صحيح أن الوحي قد انقطع بانتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، ولكن الموحى به قائم بين ظهراني الأمة في الكتاب والسنة، ثم في آثار العلماء العالمين.

والاجتهاد على أساس من ذينك الأصلين العظيمين بعيداً عن الهوى والأغراض الهابطة: غير موصد الأبواب بل هو مشروع لأهله ومطلوب لا محالة.